مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
Journal of the College of Basic Education Vol.31 (NO. 132) 2025, pp. 23-36

السرديات الكبرى بين الأدائية وما بعد الحداثة القضية الفلسطينية في الرواية العربية المعاصرة مثالا

م. م. يحيى مزبان بديوي السعيدي أ.د بشرى ياسين محمد
كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية
yyalsaeede@gmail.com debushrayaseen@yahoo.com
07722691211 07704221527

مستخلص البحث:
تقاربُ (الأدائيةُ) التاريخَ و(تفتعلُه) سردياً عن طريقِ إخراجهِ من ربقةِ تصوراتِ جمهورِ (ما بعدَ الحداثةِ) القبليةِ، أو حتى البعديةِ، فالتاريخُ عنفوانُ أممٍ بكليتهِ، وأيضاً تراه عكسَ (إبتداعاتِهم) لا يمكنه أن يكون فتاتاً لا ملامحَ له، أو إنه قطعٌ زمنيةٌ تبعثرتْ هنا وهناك ، بل إنها والكلامُ عن (الأدائيةِ) تفترضهُ مزيجاً من هذا وذاك، سيلٌ غيرُ منقطعٍ، وخطٌ زمنيٌ يسيرُ بتتابعٍ تامٍ لا توقف له، ومع خطيتهِ غير المنكرةِ، فإنه نتاجُ تفاعلٍ أممي عظيمٍ، وتكتنفُ وجودَه قوى إنسانيةٌ ساهمتْ في صنعِ مرتكزاتٍ معرفيةٍ هائلةٍ فـ " إيشلمان يقدمُ تصورَه عن التاريخِ بوصفِه سلسلةٍ متعاقبةٍ الحقبِ التاريخيةِ، ولكنه يطرحُ هذا التصورُ التعاقبي للحقبِ في سياقٍ ميتافيزيقيٍ غير جدليٍ.." [1] وبذلكَ تستأنسُ (الأدائيةُ) بالتاريخِ، وتفترضه أحد أهم أدواتِ الكاتبِ الروائيةِ، وهي بهذا ترسمُ حدوداً غائيةٍ لاستخدامِ التاريخِ، في كونه معبر ومتكاملٍ، ويرتدي حلةً إنسانيةٍ محترمةٍ، ومن هنا نعرف إن (الأدائيةَ) والتاريخَ طرفانِ غير متناقضينِ كما يحدثُ في (ما بعدَ الحداثةِ)، بل إن (الأدائيةَ) تحضُ على دعمِ التاريخِ كحالةٍ ارتداديةٍ ملائمةٍ للنصِ، وتعطي الكاتبَ فرصةً سرديةٍ للتعبيرِ والتصديرِ معاً. وفي هذا البحث سنناقش السرديات الكبرى من منظورين متغايرين، فرؤية (ما بعد الحداثة) لها تختلف تماما عما رأته (الأدائية) كنظرية ناشئة تعالج السرديات الكبرى معالجة أدبية مرجعية بحتة، وكان اختيارنا للقضية الفلسطينية تسريدا روائيا لما وجدنا في صلاحيتها لتكون سردية شعب بكامله سينظر لها التاريخ دائما نظرة إجلال وإكبار.

الكلمات المفتاحية: الأدائية، ما بعد الحداثة، السرديات الكبرى، التاريخ.

مقدمة:

الإنتاجُ الأدبي الذي تتوخاهُ (الأدائيةُ) إنتاجٌ مختلفٌ عن ما خلفته (ما بعد الحداثة)، لأنها تتوقعُ مرحلةً جديدةً في الكتابةِ، تكسرُ رتماً روائياً ظل لسنواتٍ يعتاشُ على تلقٍ نقديٍ متقلبٍ، ويتعايشُ مع عصرٍ إنسانيٍ عاصفٍ بالمتغيراتِ، ودونَ الخوضِ في نصٍ قلقٍ أنتجهُ إنسانٌ قلقٌ، وقرأه إنسانٌ قلقٌ، فالحقبةُ هذه تسلطتْ على العمليةِ الإدراكيةِ التي ولدتْ أدباً مارقاً، وذا سياقاتٍ نقديةٍ جامحةٍ، وكانتْ تلك أهم سلطةٍ وجهتِ المدونينَ والفلاسفةَ والباحثينَ باتجاه محتوىً يتسقُ مع ظاهرةِ العولمةِ التي باتت مهيمنةٍ في الوسطِ الثقافي.. وفي مفصلية الرواية والتاريخ، او التاريخ والرواية، تهتم (الأدائية) بهذه الجنبة في تسريدها اهتماماً مختلفا، وتضعه في خانة (المقاربة)، تارة وفي (التوظيف) أخرى وفي كلتا الحالتين تجده اشتغالا معرفياً يضيف للرواية، ويحقق معها اتساقاً بيناً ومطلوباً من قبل القارئ الذي يرغب في الاستزادة (الدرامية) مع وعي تاريخي بلا تزييف ولا تحريف .

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
Journal of the College of Basic Education Vol.31 (NO. 132) 2025, pp. 23-36

المبحث الأول: ما بعد الحداثة والسرديات الكبرى

تفتخرُ (ما بعدَ الحداثةِ) إنها أزاحتِ السرديات الكبرى من أجندتها الأدبية، وكذلك أزالت تأثيرها الذي تراه يهيمنُ على الفكرةِ، ويحيلُ تفسيرَها إلى تعقيباتٍ لامعنى لها، ولو بحثناً عن تعريفِ (ما بعدَ الحداثةِ) في أي مكان لوجدنا تغييبَ (القصصِ الكبيرةِ، الحكاياتِ الكبرى، السرديات العالمية، القصِ الشمولي، القصصِ العظمى، الحكاياتِ التبريرية الكبرى [2] إلى كثيرٍ مما يترادفُ مع هذا المعنى، وهو تعميمٌ اتخذَته (ما بعدَ الحداثةِ) عطفاً على ما قررته تجاه التاريخِ، إذ تنظرُ للسردياتِ الكبرى على إنها تزويقٌ تاريخي لا محلَ له من المعنى، وإن أي تنصيص لها ينقصُ من قيمةِ النصِ، ولا يرفعه ..[3] تُرى ما هي السرديات التي اجتهدتْ (ما بعدَ الحداثةِ) لإبعادِها .؟ ، وما الذي يدفعها للتنكرِ لها ؟

السردياتُ أو القصصُ، أو أياً ما يمكن تسميتها؛ مجموعةُ ملهماتٍ " للحركاتِ السياسيةِ الممتلئةِ حماسة، أي صارتْ منبعاً لمفهومِ الآخرة الجماعيةِ المرتبطةِ بالإيمانِ بمعركةِ الخيرِ الأخيرةِ مع الشرِ، والتي ولدتْ شراً كان يصعبُ حتى مجردِ التفكيرِ به من قبلِ.." [4] ، ويعرفها ليوتار: " أنها منظومةٌ فكرية وقيمية عامة تفسرُ الطبيعةَ والمجتمعَ بصورةٍ شموليةٍ ونهائيةٍ، وتنزعُ نحو الهيمنةِ والإقصاءِ .." [5] ويقولُ عنها (إدوارد سعيد): " إن فيها "تشكيلُ عالمٍ متماسكٍ متخيلٍ، تحاكُ ضمنه صورُ الذاتِ عن ماضيها وكينونتها، وتندغمُ فيه أهواءٌ، وتحيزاتٌ وافتراضاتٌ تكتسبُ طبيعةَ البديهياتِ، ونزوعاتٌ وتكويناتُ عقائديةٍ يصوغُها الحاضرُ بتعقيداته بقدرِ ما يصوغَها الماضي بمتجلياتِه وخفاياه، كما يصوغُها بقوةٍ وفاعليةٍ خاصتينِ، فهمُ الحاضرِ للماضي، وانهاجُ تأويلِه له، ومن هذا الخليطُ العجيبُ تنسجُ حكايةٌ هي تأريخُ الذاتِ لنفسِها وللعالمِ، وتمنحُ طبيعةَ الحقيقةِ التاريخيةِ، وتمارسُ فعلها في نفوسِ الجماعةِ، وتوجيه سلوكِهم وتصورِهم لأنفسِهم وللآخرين، بوصفِها حقيقةً ثابتةً تاريخياً، وتدخلُ في هذه الحكايةِ، أو السرديةِ مكوناتِ الدينِ واللغةِ والعرقِ والأساطيرِ والخبرةِ الشعبيةِ وكل ما النفس المتخيلة " [6]، ومعَ هذا التفسير الشاملِ لفلسفةِ السردياتِ، وموضعها في النصِ السردي، لابد من بيانِ وجهةِ نظرِ مجتمع (ما بعدَ الحداثةِ) للتخلص منها - حسب قراءاتنا- يتمحورُ حول:

- إنها شموليةٌ ومطلقة
- عديمةُ المعيارِ، وغير خاضعةٍ للمنطق
- لا يمكنُ الاستنادِ عليها كخطابٍ جمعيٍ عالمي
- لا يمكنُ اعتبارها مقياساً للخيرِ والشر
- اعتمادُها يرهنُ النصَ بتصوراتٍ مسبقة
- إنها متصلةٌ بالتاريخِ، والتاريخُ منقطعُ الحتمية
- تتصفُ بانها خطابٌ أيديولوجي
- فشلتْ في تفسيرِ المستقبلِ، وتحديدِ اتجاهاتِ التاريخِ..[7]

ونستطيعُ القولَ أيضاً إن مجتمعَ (ما بعدَ الحداثةِ) يخشى من السردياتِ الكبرى من ناحية:

- إن الاهتمامَ بها سيؤدي إلى انهيارِ الرواياتِ الصغيرةِ وتحولها إلى آثار [8]
- إن الكاتبَ فيها سيستحوذُ على حسِ القارئ من خلال الاعتمادِ على وثائقَ منقطعةِ الصلة [9]
- تجدُ فيها انتصاراً للأيديولوجياتِ السياسية [10]
- عن طريقِها " ستشادُ إمبراطوريات شمولية جديدة، مستعدة لأن تُخضعَ العالمَ كله لمشاريعِها العظيمة.." [11]

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
Journal of the College of Basic Education Vol.31 (NO. 132) 2025, pp. 23-36

وتنطلقُ عمليةَ التفتيتِ من حقيقةِ إن كلِ أدبٍ يتسمُ بالعالميةِ، يحققُ وجودَه عن طريقِ تأثيرِهِ العابرِ للقاراتِ، عليه أن يدخلَ مرحلةَ الخصخصةِ الأدبيةِ، وبالتالي يمكن التعامل معه بأخذِ جزءٍ منه وتصييره إلى سياقٍ نصيٍ منفلتٍ بإمكانه أن يخضعَ لعملياتٍ تجميليةٍ من قبلِ الكاتبِ، ليستطيعَ الاندماجَ مع المكتوبِ الجديدِ فـ " جميعُ النصوصِ الأدبيةِ ما بعد الحداثيةِ تستخدمُ، وتقلدُ في البدايةِ أنواعَ الأدبِ الشعبي، الإثارةَ والتحرياتِ، قصصَ الحبِ، الموادَ الإباحيةِ، الرومانسيةَ التاريخيةِ، الخيالَ العلمي، والخرافاتِ، والنصوصَ الأدبية الكلاسيكيةِ، أو الدينيةَ المهمة بوصفِها نصاً أولياً تقومُ بعدَ ذلك بتعديلِه وتحويلِه، والتهكمِ به، وبالتالي اكتسابهِ معنى مختلفاً.. " [12] ، والأمرُ كما لو إننا سنسعى إلى ما تعلمنا منه، ودرجنا عليه ذوقياً، نسعى إلى تقطيعهِ بمقصِ الجموحِ النصي، وتوضيبه رقعاً سرديةً معدلةً تأليفياً لا يمتُ للسابقِ بصلةٍ سوى ما أريدَ من عرضهِ كنصٍ مهجن ..

ولعل التلاعبَ بالسرديات الكبرى ليس تلاعباً لا إدراكياً من قبل منظري (ما بعدَ الحداثةِ) إنما هو صميمٌ تنظيريٌ يقومُ على نسفِ ثلاثةِ قيمٍ رئيسةٍ تشتملُ عليها السرديات الكبرى هي : الخالقُ، المخلوقُ، عالمهُ، فالخالقُ أزيلَ بعنوانهِ الأصغرِ عن طريقِ إزالةِ المؤلف، ناهيكَ عن توتيرِ العلاقةِ بين الإلهِ - بمعناه المخصوص- وبينَ الفردِ عبرَ سياقاتٍ تشكيكيةٍ متلاحقةٍ كعنوانٍ أكبر، أما الإنسان، فلاشكَ إن (ما بعدَ الحداثةِ) وضعته على المحكِ، وقيمتْ وجودَه بقيمةِ المكننةِ والآلةِ المنتجةِ، ورهنتْ حياتَه بقلقٍ وجودي لا نهاية له، بقي العالم !، أو بالأحرى ما تبقى منه، لربما أفضل من يجيبنا على ذلكَ الكوارثُ الوبائيةِ، الحروبُ، التوحشُ، وكأننا في عالمٍ متصادمٍ بشكلٍ (ممنهج)..

وفي ضوءِ التحفظاتِ التي انتهتْ باتهاماتٍ ثم تخوفاتٍ، استدعتْ (ما بعدَ الحداثةِ) مفكريها لإيجادِ بدائلَ للسردياتِ الكبرى فوجدنا:

– مصطلحُ (السرياتِ المضادةِ) التي هي: " محاولاتٌ آنيةٌ مرتبطةٌ بالحدثِ التاريخي في سبيلِ تفسيره ثم التفكيكِ والعودةِ للتشكّل في وجهِ حدثٍ جديدٍ، فالسردياتُ الكبرى لم تعدْ تمتلكُ القدرةَ على تفسيرِ الكونِ.." [13] ، فدلالةُ المصطلحُ تتضحُ في جنبتي: (التفكيك- التخليق) لحدثٍ تاريخيٍ جديدٍ، يناسبُ العصرَ الذي نعيشُ فيه.

– مصطلحُ (الذاكرةِ المضادةِ) نحته (فوكو) ويستدعي تحويلَ التاريخِ إلى شكلٍ زمنيٍ مختلفٍ تماماً يستلزمُ ذلكَ تذويبَ هويةِ الذاتِ في التاريخِ باستخدامِ موادٍ وتقنياتِ البحثِ التاريخي الحديث..[14]، بمعنى: تظهيرُ قيمةِ التاريخِ؛ لكن بسلبِه من زمنيتهِ (ماضويتهِ)، وتخليقُ ذواتٍ آنيةٍ تناسبُ القص

– مصطلحُ (التاريخانيةِ الجديدةِ) استخدمَه (جون برانيغان) في كتابهِ (التاريخانيةُ الجديدةُ والماديةُ الثقافيةِ- 1987) ويعرفها بانها: " نَمَطُ تفسيرٍ نقدي، يُعطي الامتيازاتِ لعلاقاتِ السلطةِ بكونها أهمَّ سياقٍ لجميعِ النصوصِ على الإطلاقِ"، و"إنها تُعاملُ النصوص الأدبيَّة بوصفها المكانَ الذي نجدُ فيه علاقاتِ السلطةِ تُصبح مَرئيَّة.." [15] وحسب (ستيفن جرينبلاتStephen Greenblatt) في كتابهِ (الصدى والأعجوبة - 1990) " لا تَفترضُ العمليَّاتُ التاريخيةِ على أنها غير قابلةٍ للتغييرِ وعنيدة، ولكنَّها لا تَميلُ إلى اكتِشافِ حدود، أو قيودٍ مفروضةٍ على التدخُّلِ الفردي..." [16]

– مصطلحُ (الدنيويةِ - Paganism) طرحهُ (ليوتار)، ويعتمدُ عليه بوصفهِ مرجعيةٍ مؤقتةٍ لإطلاقِ أحكامٍ قيمةٍ مؤقتةٍ وراهنةٍ أيضاً [17]

– مصطلحُ السرديات الصغرى: رأه (ليوتار) بديلاً مناسباً للسردياتِ الكبرى في كونهِ " يوظفُ لإطلاقِ أحكامِ قيمةٍ على أحداثٍ منفصلةٍ ومعينةٍ ضمن إطارٍ زماني ومكاني محددٍ، ولا تدعي لنفسِها صفةَ الشموليةِ، ولا النهائيةِ المطلقةِ، فالسردياتُ الصغرى تسمحُ للباحثِ نقدَ، وتقويضِ ادعاءاتِ وتحيزاتِ السردياتِ الكبرى، وتمنحه في الوقتِ نفسه الأدواتِ المعرفيةِ لتحليلِ الظواهرِ الاجتماعيةِ

والتاريخيةِ من دونِ " إنشاءِ تأويلٍ تفسيريٍ جديدٍ " قد يتحولُ مع الوقتِ والأحداثِ إلى سرديـــــــــاتٍ كبرى بديلة.." [18]

ومع إن هناكَ جدلاً واسعاً أسالَ حبراً كثيراً في الأوساطِ النقديةِ عن جدوى التخلي، أو عدمِ التخلي عن هذه السرديات، لكننا نسجلُ ملاحظتينِ لابد من التنويهِ لهما:

1- علاقةُ (ما بعدَ الحداثيينَ) بالأنظمةِ السياسية، لا سيما مقاطعتهم لكلِ تنظيراتِ الماركسيينَ، والاشتراكيينَ، فهم في الغالبِ يعتقدونَ إن قطعَ الصلةِ بالتاريخِ إنما هو قطعُ الصلةِ بأيديولوجيةِ الماديةِ التاريخيةِ التي بشرَ بها ماركس [19]، وتبدو أسس التخالفِ مبنيةٍ على الجوِ السياسي للكياناتِ، ومدى قدرتِها على الهيمنةِ على الرأي العامِ العالمي، وإنَ تنميةَ التشكيكِ بالسرديات الكبرى يفتحُ البابَ لنقضِ أي أيديولوجية (سياسية) مستقبلاً، بوصفها تشكلُ خطرا يهددُ نفوذَ الرأسماليةِ، اتضحَ ذلك في تحطيمِها لكلِ أنشطةِ الماركسيةِ الفلسفيةِ، وتشكيكها بقدرتها على نشرِ مبادئ الحريةِ والمساواةِ ..[20]، بالإضافةِ إلى ما ذكرنا فـ (ما بعدَ الحداثةِ) كتكوينٍ فكريٍ نما في ظلِ قوى ترغبُ في استعمارِ العقولِ فكرياً عن طريقِ مجموعة أجندات، ترفضُ المرجعياتِ، وتفترضُ نفسها مرجعيةً حاليةً، تستطيعُ بإضافةِ مسلماتٍ جديدةٍ تعظيمُ نشاط التشكيكِ بأي حالةٍ وبما إن المرجعياتِ أياً كانتْ تحملُ أبجديةَ (الفعلِ ورد الفعلِ)، (الحدثِ وفلسفتِه) هنا على المرجعيةِ ان تتفتتَ، ويحلُ محلها التقييمُ الاعتباري بأن لاشيَ ثابتٍ، ولا شيءَ يقيني..[21]

– هناكَ تفاوتٌ غير منطقي في التعاطي مع السرديات الكبرى، لأنَ (ما بعدَ الحداثةِ) بقضها وقضيضها قبلت أن تكونَ (الهولوكوست) * " سرديةَ (ما بعدَ الحداثةِ) الكبرى والوحيدة، ومن أجلِها تناقضتْ مع كثيرٍ من جوانبِ فلسفتِها .." [22] وعلى الرغم من عدمِ ضبطها (الأنموذج) [23] وقابليتِه على الامتدادِ ليشمل كل المجموعاتِ البحثيةِ، حولتْ (ما بعدَ الحداثةِ) (نموذجيتَها) مطمعاً للأهواء، والميولِ الشاذة، بل صارتْ تجرمُ الآخرُ الذي يشككُ ويحتمل ..[24] ، وستكون لنا وقفة أخرى مع سردياتِ (الهولوكوستِ) في موضعٍ آخرَ من بحثنا.

المبحثُ الثاني: الأدائية والسرديات الكبرى

تتصرفُ (الأدائيةُ) في التاريخِ على إنه مجملٌ حضاريٌ قيمٌ، يتوافرُ على مراجعاتٍ، وتجاربَ، وتفاصيل البدايات، فالماضي معينٌ أساسيٌ لأي كتابةٍ إبداعيةٍ، يمكنهُ أن يُمارسَ على إنه وثيقةٌ أدبيةٌ غيرُ قابلةٍ للدحضِ ولا للتغييرِ، أو التلاعبِ الدرامي [25] ، لكن علينا أن نفهمَ إن (الأدائيةَ) تتخذُ موقفاً وسطاً في تمثيلِه النصي، لأنها تعي إن هناكَ تواريخَ مزريةً، تحملُ بين طياتِها انتكاسةٍ مؤلمةٍ للضميرِ الإنساني، قبالتها إشعاعاتٍ غايةٍ في التفردِ والتمدن، لذلك فهي تحاولُ أن تمسكَ عصا الكتابةِ من الوسطِ، وبالتالي فانَ تكفيرَ المجرمين أياً كان انتسابهم، ونشرَ فضائلِ التجاوزِ والمصالحة؛ أهمُ مبدئين حسب استشرافِ إيشلمانِ لنوعِ الكتابةِ القادمة ..[26] ، ونستشفُ إن لا محظورَ سردي عند (الأدائيةِ)، وإن أياً من الشعوبِ التي تمتلكُ محكياً يعبرُ عن (مأساتِها، نجاحِها، صمودِها، ابتلائِها) بإمكاننا أن نستوردَ تفصيلاته مع الإلحاحِ على حسنِ التقديمِ، والتكفلِ بنشرِ الفضائلِ الحسنى فيها، وإبقاءِ النظرةِ المتفائلةِ التي تدعو الإنسانَ دائماً للتحسن.وإتماماً لافتراضِ إن التاريخ بكل دراساتِه النظرية يتحركُ باتجاه تقادمي ولا معنى لانزياحه عن حركةِ الإنسان الخالقةِ له، والحاضنة لتفصيلاته، بل والمحركة لفعاليته الطرديةِ التي تتناسبُ حتماً مع نموه، لذلك اتخذت مجموعةٌ من الحوادثِ طريقها لتكونَ سنناً تاريخيةٍ يتموضعُ حضورها أما عن طريقِ علاقةٍ منطقيةٍ بين مجموعةِ أحداثٍ تعودُ إلى ذات الأحداثِ نفسها ولا تحتاجُ في إيجادِها إلى فاعلٍ مدركٍ قامَ بهذه العلاقةِ وهو وما تقترضهُ النظرياتُ الوضعيةُ لحركةِ التاريخِ، وأما يكونُ وجودها بفعلِ ذاتٍ مماثلةٍ فاعلٍ هي التي أنشأتْ هذه العلاقة، وهو ما تفترضه النظرياتُ الإلهيةِ في تفسيرِ حركة التاريخ .." [27]

إن أكثرَ ما تسعى لتحقيقِه (الأدائيةُ) إعادةَ تنشيطِ الاهتمامِ بالسرديات الكبرى، تلكَ المتعالقةِ مع الإنسانيةِ، شاملةً تجاربَ لا يمكن نكرانها، فهي تاريخٌ منظورٌ غير مخصوصٍ بفرقةٍ بعينها، ولا شعبٍ بذاته، بل هي محافلُ دائمةُ التوظيفِ فحضور التاريخ (وفقها) في صميمِ النصِ الروائي، واعتباره مرجعية جمالية تمنحُ النصوصَ الإبداعيةِ تسييراً بنيوياً جديداً ينبعُ من تقديرِ المادةِ التاريخيةِ في حد ذاتِها، والقدرةِ على الإحساسِ بها وتثمينِ هذا الإحساس الذي يعد مزيةً من المزايا الإنسانية .." [28]

وبينما فتتْ – كما ذكرنا - (ما بعدَ الحداثةِ) مقولةَ شموليةِ السرديةِ الكبرى، فإن (الأدائيةَ) تصرُ على اعتبارها إرثاً متكاملَ التأثير يحتفظُ بسيادتِه التأثيريةِ على الدوامِ، تحاولُ (الأدائيةُ) إعادة السردياتِ الكبرى وذلكَ: لشأنها الحيوي المتموضعِ كحجرِ زاويةٍ لما تعلمَه وما أدركه لاحقاً من كونِها ذات مضامين تفوقُ النصَ الذوقيَ الوقتيَ فهي : [29]

1- تحملُ بُعداً غيبياً ميتافيزيقياً يموقعُ الإلهَ ويجعلُه بمرمى العقلِ الإنساني
2- تؤسسُ لوجودٍ فعلي للإنسان غير مفرغٍ، فهو معمارٌ حياتيٌ متكامل
3- تضعُ الإنسانَ أمامَ مرجعياتِه القبليةِ وحتى البعدية
4- تضعُ تفاعلَ الإنسانَ النفسيَ مع دائرتِه أساساً لخلقِ دوائرَ تأثيريةٍ متسعة

وغيابُ هذه (الأهمياتُ)، أو تغييبها أدى إلى شرذمةِ السرديات الكبرى، وتخلفُها عن أداءِ دورها الرابطِ بين أدابِ الشعوبِ، ونحن إذ ندرسَ متبنياتِ (الأدائيةِ) وحثها المستمر على توقيرِ السردياتِ الكبرى، فإننا ننظرُ إلى الفعلِ الإنساني الذي أنتجَ أدباً، أو فكراً، أو ملحمةً، أو تجربةً حضاريةً سرديةً دون استثناءٍ لأيٍ منها، وهي منتجاتٌ خلاقةٌ أثرتِ العقليةَ الإنسانيةِ ودفعتها للأمامِ، وإن كانت اليوم كما يرى بعضهم (باليةً، قديمةً، بدائيةً) بمقاييسِ عصرنا، لكن ذلك لا يمنعُ ثرائِها وجدتِها الإبداعيةِ وقتذاكَ، وكما إن لكلِ شعبٍ أثر، ولكلِ حضارةٍ ثقافة، والعربُ أولى من غيرهِم بالتحضر، لسبقِهم الزمني واحتفائِهم الدائم بإرثِهم الديني والاجتماعي والأدبي، وأياً ما يمكن أن يحتضنه النصُ السردي، يبقى مكملاً لتدوينيةِ التاريخِ من جهة، ويضيف بعداً جمالياً من جهةٍ أخرى، فـ " النصَ الروائي بناءٌ دلاليٌ يحيلُ في مجملِه على عوالمِ الحياةِ الإنسانيةِ التي يؤسسُ من خلالِها خطابه الدلالي باستخدامِ وسيطٍ لغوي يجعلُ كلَ مكوناتِه التركيبيةِ ووحداته الدلاليةِ تتظافرُ من أجلِ انجازِ هذه المهمة [30] ، ولدينا سرديات تشكلُ علامةً فارقةً في تاريخِ الفكرِ الإنساني ككل، وفي مجالِ الروايةِ العربيةِ التي نحنُ بصددِها انتخبنا سرديةً عربيةً وجدناهما كانت، ومازالت مضماراً للرواية، حفلت بهما بشكلٍ متزايدٍ على الرغم من التقادمِ، هي؛ (القضيةُ الفلسطينية).

القضيةُ الفلسطينية في الرواية العربية

واحدةٌ من أعقدِ وأشقِ القضايا الإنسانيةِ عبرَ التاريخِ؛ قضيةُ الفلسطينيينَ ونضالِهم المستمرِ لاستعادةِ أرضِهم المسلوبةِ، وعبرَ قرنٍ من الزمانِ، كان العالمُ يتحركُ باتجاهٍ، والفلسطينيونَ لا إشارةَ لبوصلتِهم إلا باتجاهِ القدسِ، انشغلَ الأرضيونَ بهمومِهم مجتمعةً، لكنَ لفلسطينَ همُها الأثقلُ على الاطلاقِ ..

وما زالنا في السردياتِ الكبرى التي نعتقدُ إن زلةً كبيرةً سقطَ فيهما (ما بعد الحداثيين) حين أزالوا السردياتِ الكبرى من أجندتهم، بل وانشغلوا في بيان معرقليتها للفكر الإنساني؛ دون أن يكلفوا أنفسهم عناءَ الموازنةِ بين الضحيةِ والجلادِ، حين وضعوا (الهولوكوست)، والتاسع من سبتمبر كاستثناءٍ من هذا أي افتراض..[31] والمبدأُ في السردياتِ الكبرى أن تضعَ تجربةً إنسانيةً (مؤثرةً) تصلحُ لأن تكونَ مرجعاً لكلِ إنسانٍ، وبصرفِ النظرِ عن اللونِ أو العرقِ، أو اللغةِ فإن الإنتاجَ هنا تتحكمُ به الفكرةُ الجوهريةُ القائمةُ على المداومةِ، وتفجيرِ الطاقاتِ الإبداعيةِ في منحىً إيجابي يدفعُ المتلقينَ للتماهي والتوظفِ والاستنارةِ، و(الأدائيةُ) في هذا الصددِ تتعاملُ مع أمر السردياتِ تعاملاً عقلانياً، إذ تُمكنُ الاستفادةَ من كلِ سرديةٍ مادامتْ تتوافقُ مع بناءِ إنسانٍ حضاري، ولا تدعو إلى تدنيسِ فكرٍ على حسابِ آخر، وكذلك فإن (الأدائيةَ) لا تمحقُ، أو تستثني شعباً من الشعوب، لكنها تتعاملُ مع الفكرةِ

العنيفةِ تعاملاً حذراً فيه تجنبٍ كبيرٍ لخدشِ خصوصياتِ الآخرينَ إذ " لا يهدفُ الإسقاطُ الأدائي الى جعلِ الماضي الملطخِ بالعارِ يتفشى في المستقبلِ على نحو أعمى، وبدلاً من ذلكَ، فإنه يوفرُ إطاراً مؤسساً على الحاضرِ له القدرةُ على التوسطِ بين الجانبين .." [32]
على صعيدِ القضيةِ الفلسطينيةِ التي نتعاملُ معها روائياً، فإننا نؤكدُ استحقاقَ النضالِ الفلسطيني الذي استمرَ لعقودٍ طويلةٍ أن يكونَ سرديةً كبرى، تجلى ذلك في تعاطي الأدباءِ بشكلٍ فعالٍ مع معاناةِ الفلسطينيين، فقد " أوجد حبُ الفلسطينيينَ لأرضِهم، وسخائِهم الدائم لإروائها بدمائهم، علاقةً جدليةً، ورباطاً وثيقاً بين الإنسان الفلسطيني والأرض تصلُ إلى درجةِ العبادةِ والتقديسِ والالتصاقِ بكلِ حبةِ ترابٍ مجبولةٍ بعرقِ الفلاحين والكادحين ودمائهم ودموعِهم، والأرضُ رمز للبقاءِ والوجودِ والصمودِ والحنينِ اللاهبِ للمشردين والمغتربين في الشتاتِ حيثُ تشكل إحدى الملامحِ الشديدةِ الحضورِ في دفترِ الأدبِ والعشــــــــــــــقِ الفلســـــــــــطيني .." [33] وعلى الرغمِ من الرأي القائلِ بأن هناكَ قصوراً واضحاً للروايةِ في تغطيةِ الهمِ الفلسطيني، إزاءَ الشعرِ الذي حفلَ بها، واحتفى بنضالِها على كلِ منصة، ربما كانَ ذلكَ لتفاعلِ العربَ مع الشعرِ أكثرَ من الروايةِ، أو لأن الروايةَ لم تكدْ تفرضُ سطوتِها الأدبيةِ بعد، فهي في مرحلةِ النضوجِ والتجريبِ أيامَ ذروةِ النشاطِ الفلسطيني، لكن ذلكَ لا يمنعُ من استثمارِ حصةٍ لا غبارَ عليها في التوظيفِ والتناصِ، ابتداءً من المدِ القومي في منتصفِ القرنِ الماضي، وحتى اليومِ.. فإبراهيمُ نصر الله (مثلاً) ابتنى مشروعاً روائياً سمي فيما بعد بـ الملهاةِ الفلسطينيةِ شملَ رواياته (أعراس آمنة)، (طفلُ الممحاةِ)، (زمنُ الخيولِ البيضاء)، (طيورُ الحذرِ)، (زيتونُ الشوارعِ)، (ملكُ الجليلِ)، (دبابةٌ تحتَ شجرةِ عيد الميلاد)، (سيرةُ عينٍ) يمكن أن يُقالَ عنها تجربة روائية رائدة في تكثيفِ الثيمةِ، وتعظيمِ النصِ النضالي، ولم يسبقْ لنا أن رأينا روائياً كتبَ بهذا الإصرارُ سواه..وعندما نتوغل في الهم الفلسطيني تطالعنا ثيمة روائية مشتركة في الغالب تتمحور حول الأرض والعودة، وقسوة اللجوء، وأحلام الطفولة من قبيل:
(الأسرى يقيمون المتاريس – 2008) فؤاد حجازي، (إيفان الفلسطيني – 2011) لمروان عبد العال، (أولاد الغيتو – 2016) لإلياس خوري، (وداعا يا زكرين – 2016) رشاد أبو شاور، (للقضبان رواية أخرى – 2019) لحسن حلمي، (ليلة واحدة تكفي – 2021) لقاسم توفيق، ، (مريم وشجرة الغرقد – 2021) لهادي شبلي، ، (بيسان – 2021) لتسنيم التلاوي، (حين حكت يافا – 2024) لميرا عماد كريم، ، (اللعب بالجنود – 2024) لطارق عسراوي، (على أطراف الأصابع – 2024) لمرفت أبو العينين، شاكر.. وغيرها وهي وان كتبت بلغة حديثة، وجارت عصرانيتها، إلا إنها بقيت وفية لغايتها الأساسية المتمثلة بالتذكير دوما بجرحها غير المندمل والذي لن يندمل حتى يأذن الله بزوال الاحتلال، ولذلك فان الرواية الفلسطينية لا يستطيع كتابتها إلا من عاش همها، وتعايش مع مخاضات أبنائها، ولو أن القضية الفلسطينية تعتبر هماً عربياً خالصاً، بيد إن الكتاب العرب غير الفلسطينيين لم يتناولوها بالعمق النفسي كما تناوله الأبناء. فللأرض عند أهلها تقدير لا يوازيه تقدير سوى الدم، إن قضية التفاوض على أيهما اهم لا معنى لها، ما دام المقتنعون بان أرضهم ثمنها دمهم، ا وان دمهم ثمنه أرضهم، وان حصل تغيير في خطط التوطين فان ذلك لظرف خارجي قاهر، ولذلك سنقرا التصاقا بالأرض الوطنية أينما امتدت، ونرى تعشعشا لا نهائيا لمفردة الوطن:
ولدت في مدينة صغيرة اسمها خان يونس، تجاورنا من الجنوب مدينة رفح، ومن الشمال دير البلح، اما من الغرب فنطل على البحر.. هي مدن صغيرة تشكل ما يسمى بقطاع غزة..[34] .
والأمر عادة لا يحسم بهذه التوصيفات الجغرافية، لان العمق الوجداني لرسوم الخرائط أعمق كثيراً من تخطيطات المدن وحدودها، وهو أي هذا التعالق الوجداني فطري في الغالب يتعمق تلقائياً منذ اللحظة التي يطلب فيها المعلم أن نرسم خارطة الوطن على ورقة بيضاء، وبجوار هذه المرتسمات

التي تضفي جواً انتمائياً في الغالب يأتي الشعور بفعالية إن نصف لشخص ما النقطة التي ولدنا فيها، ومن ثم تتحول النقطة إلى حي والحي مدينة، ومن ثم وطن:

لا أعلم إلى أي حد احب مدينتي، وإلى أي حد أكرهها، أنا أحفظ هذه المدينة الكئيبة عن ظهر قلب، دكاكينها، أزقتها، كلابها، وقططها، منازلها التي هدمت والتي لم تهدم بعد..[35]

والمفارقة في إن فلسطين وتواتراتها السياسية التي تلقي بظلالها على مواطنيها وعلى المتعاطفين معها بدافع التشارك العروبي، المفارقة إنها تعيش متوالية زمنية متكررة، فما كتبه الروائي عن القصف والتشريد والحرب يتكرر كل عقد من الزمان بعينه، وإن الأوصاف التي نقراها في رواية يتذكر شخوصها تاريخاً تسعينياً مثلا، نجدها تشبه كثيرا ما نعيشه الأن في زمننا هذا، وفي كل عقد نعيش ماسي القصف والاعتقالات، ونعيش الهم الذي لا نستطيع الخلاص منه بسبب عجز داخلي وخارجي، ونظل نجتر التعاطف فقط مع سكانها. وفي تعليق لعجزنا وعجز الروائي عن الإتيان بما يفوق التعاطف يلجأ لذاكرته، فيتقهقر التمدد إلى الخلف، فيتكور على ذاته ملتمسا ضوءاً شحيحاً يثبت إنه عائش وسط أهله، لكنه لا يشعر بأهليته أبداً:

في ذاكرته عصية على التنسيق، يعيشُ أساساً في تلك البقعة الخفية الصامتة فيه، يحرص على ان يصون غموضه ولا يحب من ينتهك هذا الغموض.. الغريب هو الذي يقول له اللطفاء من القوم أنت في هنا في وطنك الثاني، وبين أهلك، وهو الذي يحتقرونه لأنه غريب، أو يتعاطفون معه لأنه غريب، والثانية اقسى من الأولى.. في ظهيره ذلك اليوم الخامس من حزيران 1967 أصابتني الغربة.. [36] ولا يمكننا تجاوز تاريخية النكبة المشار إليها بالتاريخ اليقيني لمرحلة ما بعد الهزيمة، الوقت الذي طوح بالمال القوميين العرب الحالمين بوطن قوي متمنع عزيز، لكن الحلم صار كابوسا، بقي تأثيره النفسي غائراً في وجدان من عاصره، ويصبح أقسى من معايشة الحلم الزائف القديم، التعايش مع مخرجاته، المخرجات المرة، التي يتجرعها ابن الأرض مرارا وتكراراً:

هذه هي الأرض المحتلة يا أبو نزار إنني أستطيع أن أمسكها باليد.. وفي عين حسين مرة وتكون الجواب كله وكان الجواب صامتا ومبلولاً ..[37]

ولا نستطيع بحال وصف من يجعله القدر يدنو من أرضه دنواً اعتناقياً؛ لكنه مكتفٍ لا يمكنه المعانقة، يراها ولا يشمها أو يلمسها، كان هذا حال الراوي وهو يحكي لنا كيف كانت تجواله وهو الفلسطيني في الأرض التي سميت بالمحتلة، لكنه تجوال زائر وليس مواطن، استلبت منه مواطنته ونفي بعيدا، ليفد إلى أرضه مثل الغرباء..ولعل المدينة التي لا تنجب أبناء عقوقين اكثر المدن سعادة، فهي تضمن إن وجدان أبنائها لن يخلو يوماً من ذكرها، فيافا المدينة المسمى الأرضي للبقعة السكنية القصية لم تكن أرضاً جرداء بل كانت امرأة حملت الاسم والإرث معا، ففي روايتها (**يافا**) اختارت الكاتبة **نبال قندس** اسم مدينة ليكون هو منادى بطلتها الأبدي، ورمزية ذلك بائنة في طريقة حصر اشد أنواع الانتماء عندما يتشابك الاسم والمسمى معا، وبالتالي سيكون للبطلة من اسمها كل النصيب، وكان لفقدان يافا لحبيبها أثناء الحرب، شبيهاً بفقدان يافا لأبنائها فقلبهما خال، وممسوس بالحزن الأزلي:

ضاع صوتي وصراخي في الزقاق، ابتلعت الجدران الصدى الذي تردد في ظلمة الليل، واختفى حسن مع رفيقيه الملثمين قبل ان يجيبني، ولاني اعرف وجهته لم الحق به، ولم امنعه من الذهاب، ابتلعت ما بقي من صوتي ندائي وعدت أدراجي ..[38]

هذا حال البطلة والمدينة معا ينسل منها أحبائها يوما بعد يوم، فتنهش أنياب الفراق القلوب لوقت أطول مما كنا نحسب.ولحيفا لابد أن تمور الذاكرة بجدائل الطفولة واليفاعة ومن ثم التشرد:

حين تعصف به ذاكرة شرفة الله وهو يحاول ان يرسم صورته بحبر الكلمات، يرى حيفا وهي تسقط في البحر من شاهق الكرمل .. تصير ملاذا لشاب صغير لا ملاذ له سوى شعوره بان ما يعيشه ليس سوى ظلال لحياة انسان ما كان الا ظلاً لحكاية لا مؤلف لها.. [39]

وعن جزئية غياب الوطن كغياب الروح:
السؤال الذي يؤرق كاتب هذه الحكايات هو كيف يكتب الغائبون ؟ هل يستطيع الغائب أن يروي حكايته بضمير الأنا.. [40] والإجابة على هذا التساؤل من العسر بما يشبه عسر نسيان وطن كان بيتا امنا دافئا مضيئا وضاحكا ثم تحول الى خرب مخيف بارد معتم وحزين.
وفي روايةِ **سحر خليفة ربيعٌ حار- 2004** نقرأ عن حبٍ ممنوعٍ بين احمدٍ وإحدى اليهوديات عابرٍ لجدارِ المستوطنةِ العازلِ، وتبدو الثيمة الإنسانية ملاذاً لسردِ الكاتبةِ، إذ راوغتْ القارئَ في تشكيلِ شخصياتٍ تنتمي لفلسطينَ (شكلاً)؛ لكن لها توجهاتٍ متعددةٍ، لا يشكلُ الوطنُ إلا جزءً منها (مضموناً) هي لم تلتفتْ لصلبِ القضيةِ الفلسطينيةِ، بقدر ركزتْ على الانقسامِ الأيديولوجي بين الأخوين (احمد – مجيد)، حين يتمردُ أحدهما ليعملَ في احدى المستوطناتِ اليهوديةِ بالرغمِ من المنعِ (الأسري):
أجفلَ أحمدُ، وراجعَ ما قاله والدُه عمن يعملونَ في مستوطنةِ كريات شيبع، حينَ عرفَ أبوه إن مجيداً يعملُ في الصيفيةِ؛ عملَ طوشةٍ، ورفع صوتَه وهددَ بالضربِ والتبرؤ، قالَ: أتبرأ منكَ لا أنتَ ابني ولا أعرفك .. أنشُرُها في الجريدةِ على مدى أسبوعٍ، حتى يعرفَ العالمُ كله إنكَ منبوذٌ .. [41]
ولا تنفكُ الذاتُ الإنسانية، ذاتٌ غير مسيطرٍ على انفعالاتها كما يتداولها الروائيون، ولا يمكنُ تحديد ميولِها مهما كانتِ المحاذير، وتقاربِ، أو تقريبِ وجهاتِ النظرِ فيه ما يعدُ استجابة لنداءِ التشابهِ الإنساني النابذ لكل اختلافٍ على صعيد التجربة..
أما في روايةِ **سماءِ القدسِ السابعةِ - 2023 لأسامة العيسة**، فإننا نستقصي التراثَ الذي يخدم مصلحة السردِ، ابتداءً يخبرنا الروائيُ كيفَ يمكننا أن نبحثَ في التراثِ لنبينَ قبحَ الخذلانِ، فالافتتاحُ العظيمُ لسَبْعٍ يشعرُ بالعنّةِ، فينتكسُ عن ممارسةِ حياتِه الخاصةِ، وبالتالي سيفسحُ المجالَ لغيرِه بالتموضعِ وأخذِ الأدوارِ المهيمنةِ، ولا يمكنُ بحالٍ إغفالِ الإشاريةِ الفعالةِ لتخاذلِ العربِ عن نصرةِ قضيتِهم، فاستفحلَ المتربصونَ، وتمكنوا من المكانِ والمكينِ.. ولا يفوتُ الكاتبُ أن يضعنا إزاءَ متلازماتِ البوحِ الغيبي، حين يربطُ الدلالةَ بالمدلولِ بلا تحريضٍ ولا قسرٍ، بل يتركُ التأويلَ متاحاً للقارئ:
حلمتْ أمي وأنا في بطنها بملكِ القدسِ، يقفُ على سورِ المدينةِ المقدسةِ الرابضةِ على المرتفعِ شمالنا، ملوحاً بسيفه، مطلاً على جنائنِه وبساتينِه في قريتِنا، ويفكرُ في كيفيةِ ضمِها داخلَ السورِ خشيةً من الأعداءِ الكثيرينَ.. سمعته أمي وهي تقتربُ منه دونَ أن تعرفَ كيف يوصيها بأن تسميَ وليدَها المرتقب الذي كان يعلمُ بأنه سيكونُ ذكراً على اسمه، ليلوحَ هو في مقتبلِ الأيامِ، بسيفهِ دفاعاً عن القدسِ .. [42] وعلى عاتقِ الحلمِ ستقعُ مسؤوليةُ توليدِ الأسمِ الذي سيطغى على قدسيةِ المكانِ، ليحولَه من ظرفِ مكانٍ إلى سقفِ ضمانٍ لبقاءِ القضيةِ ثائرةٍ حتى لو تعاورها الأعداء.
وفي خضم فلسطين لا يمكننا أن ننسى المرورَ بروايتي **حكايةِ جدارٍ- 2022 لـ ناصر أبو سرور، وقناعٌ بلونِ السماءِ - 2023 لباسم خندقجي**، ليس فقط لتشابهِ سرديتيهما، ولا لثيمتيهما المبنيةِ على صراعِ البقاءِ، بل لانهما وثيقتا إدانةٍ لمن يتشدقونَ بالعدالةِ والحريةِ وحقِ العيش [43]
كنا في حاجةٍ إلى أنبياءَ نكذبهم ونرجمهم بالاتهاماتِ، ونغلقُ نافذتَنا في وجهِ رسالاتِهم، حتى إذا يئسوا رفعوا أيديهم إلى السماءِ يدعون ربَهم تصديقاً قريباً ينقذُ ماءَ وجوهِهم، وقاتلُوا في سبيلِ روايتِهم، حتى إذا ماتوا دونها صدقناهم، وحملنا ما بينَ أيديهم من أخبارٍ نرويها عنهم، كنا في حاجةٍ إلى جيلٍ كاملٍ من أنبياءَ يحسنونَ الكتابةَ على الجدرانِ، والسكنى في القلوبِ والحناجرِ، ويموتون إذا صُلبوا، ويدفنونَ قريباً منا حتى نقرأ على أرواحِ كذباتِهم ما حفظناه من أغاني وأناشيد، وإذا ضاقتْ بهم الأرضُ حفروا قبورَهم بأيديهم، وصلوا على أرواحنا صلاةً أخيرةً .. [44]
تلكَ مناشدةٌ بصرخةٍ صاخبةٍ على الذاتِ (العربيةِ) أن تستيقظَ، وترى بعينِ رسالاتها المتواترةِ إن كانَ ما يحدثُ مرضياً لأيِ إنسان..

شبيه لذلك نقرأ:

اكتشفَ مؤخراً إن أسفارَ أعمالَ الرسلِ ورؤيا يوحنا اللاهوتي قد دُونتْ قبل تدوينِ الأناجيلِ الأربعةِ، ومن الجديرِ ذكره رؤيا يوحنا اللاهوت الخاصةِ بالمعركةِ الحاسمةِ التي سيخوضها يسوعُ المسيحُ بعدَ نزولِه من السماءِ ضد قوى الشرِ والشيطانِ ستجري وقائعها في سهلِ مجدو المعروفِ بـــــــاسمِ هرمجدون [45] ولنضمنَ مدىً موحداً بين الروايتينِ اللتينِ تستقيانِ حكاياتهما من حاراتِ فلسطينِ وشوارعِها الضيقةِ كلَ هذا الاتساع في التكثيفِ مع الحالِ المعادي للحياةِ وسبيل الروايتين يبدأ بتشكيلِ عصبةٍ حكائيةٍ قادرةٍ على التنبيهِ المستمرِ، والتذكيرِ الدائمِ بـ (هنا القدس)، لا أورشليم..

لكننا لا ننكرُ إن بينَ السرديتينِ (فنياً) بونٌ شاسعٌ، وهذه فضيلتهما بالتأكيدِ، فالأولى كانتْ قد استغرقتْ مدى ما بينَ الجدرانِ، لأنها ولدت هناكَ، بينما الثانية يتقمصُها (نورٌ) الذي يتكلمُ (غيباً) مع مرادِ المعتقلِ، فهو من خلالِه يعيشُ في المطامير ويتنفسُ على الرغمِ من حريتِه هواءَ الزنازينِ، لكننا نكتشفُ إن الحياةَ في ظلِ الاحتلالِ سجنٌ كبيرٌ. و**ناصر أبو سرور** لهُ تصويرٌ مختلفٌ للزنزانةِ إذ يصفُها:

لم يكنْ في الزنزانةِ تفاصيلَ تهمني، وكل ما عناني هو الجدارُ الذي خلعَ عنه حدادَه، وارتدى لوناً يشبهُ الأبيضَ.. فكانَ أولَ قرارٍ اتخذتُه هو حاجتنا نحن الأثنينِ إلى استحمامٍ عاجلٍ وطويلٍ، وهكذا وقفتُ في وسطِ الزنزانةِ شبهُ عارٍ بعد أن نزعتُ عنها كل ما اعتراها قبلي، وبدأتُ بإسقاطِ الأسماءِ على تفاصيلِها، صارَ الحديدُ سريراً، وازرورقَ السقفُ حتى سماءً صارَ، تبخرَ البابُ، وتعلقتْ مكانه بطاقةٌ فندقيةٌ، تسمحُ وجهاً ووجهاً تمنعُ، زياراتٌ غير متوقعةٍ، أو شخصياتٍ غير مرغوبٍ فيها، وتحولَ الجدارُ إلى مدونةٍ فيها أكتبُ، وإسقطُ ما اشاءُ من نصوصٍ.. [46]

فوسطَ الضعفِ تتولدُ القوةُ، تحتَ ركامِ الترددِ تنبثقُ الإرادة، وهكذا يتحصلُ السجينُ على عالمِه الخاصِ، عن طريقِ تأنيسِ المكانِ، وتخليقِ مرئياتٍ ومسموعاتٍ يتفاعلُ معها، فهي محركٌ جيدٌ للمنوعِ من التصريحِ، فطريقةُ التوصيلِ ستنتقلُ من هلوساتٍ منفلتةٍ لا معنى لها، إلى قوةٍ عاطفيةٍ ذاتِ ثباتٍ انفعاليٍ عالٍ سيشتركُ في تداولِها القارئُ عن طريقِ التعاطي معها وكأنه مشهدٌ حياتيٍ حقيقيٍ..

تُرى ما يمكن أن يفعلُه الوحيدُ، المقموعُ الحركةِ، في وسطٍ عدائيٍ!! ، سوى أن يحركَ آلةَ الخيالِ، التي ستحركُ معها الجدرانُ (المكانِ) وتحولُها لفضاءاتٍ لا نهائيةٍ، وتزحزحُ (الزمان) الحالي إلى زمنٍ بلا قيودٍ، والخيالُ هو الذي سينفذُ كل الرؤى، مهما كانت نزقةً، أو منفلتةً، لأنها رؤىً تمنعُ العقلَ من الضغطِ على زرِ التدميرِ الذاتي ..

النتائج

– تستأنسُ (الأدائيةُ) بالتاريخِ، وتفترضه أحد أهم أدواتِ الكاتبِ الروائيةِ، وهي بهذا ترسمُ حدوداً غائيةٍ لاستخدامِ التاريخِ، في كونه معبر ومتكاملٍ، ويرتدي حلةً إنسانيةٍ محترمةٍ، ومن هنا نعرف إن (الأدائيةَ) والتاريخَ طرفانِ غير متناقضينِ كما يحدثُ في (ما بعدَ الحداثةِ)، بل إن (الأدائيةَ) تحضُ على دعمِ التاريخِ كحالةٍ ارتداديةٍ ملائمةٍ للنصِ، وتعطي الكاتبَ فرصةً سرديةٍ للتعبيرِ والتصديرِ معا.

– وإن أكثرَ ما تسعى لتحقيقِه (الأدائيةُ) إعادةَ تنشيطِ الاهتمامِ بالسرديات الكبرى، تلكَ المتعالقةِ مع الإنسانيةِ، شاملةً تجاربَ لا يمكن نكرانها، فهي تاريخٌ منظورٌ غير مخصوصٍ بفرقةٍ بعينها، ولا شعبٍ بذاتِه، بل هي محافلُ دائمةُ التوظيفِ فحضور التاريخ (وفقها) في صميمِ النصِ الروائي، واعتباره مرجعية جمالية تمنحُ النصوصَ الإبداعيةِ تسييراً بنيوياً جديداً ينبعُ من تقديرِ المادةِ التاريخيةِ في حد ذاتِها، والقدرةِ على الإحساسِ بها وتثمينِ هذا الإحساس الذي يعد مزيةً من المزايا الإنسانية

– في استحضار السرديات الكبرى لا يسعنا أن نستبعد القضية الفلسطينية من تأثيرها، وتسلطها النفسي على الكاتب والمتلقي، لذلك يمكننا النظر إلى المنتج الروائي العربي المتضمن (فلسطين)؛ انه

حالة صميمية غير منفصلة عن شعورنا بالخذلان، ولذلك نرى أن الروايات التي تحتضن فلسطين والفلسطينيين تكون أكثر تركيزاً على العاطفة منها على نصية الرواية وتميزها الأسلوبي واللغوي، فالتعويل على التشارك والانتماء ميزة فضلى في هذه الروايات.

الهوامش

(1) **نهايات ما بعد الحداثة ارهاصات لعهد جديد**، د. اماني ابو رحمة، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط 1، 2013: 361

(2) ينظر: **فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيغليين (الكسندر كوجيف- اريك فايل)**، د. محمد الشيخ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط 1، 2008: 566

(3) قد يظن القارئ إن العبارة السابقة جائرة، لكن هذا الظن يذهب حين يقرا لـ (ليوتار) انه يعتبر لغة ما بعد الحداثة إنها اللغة الكافرة باللغات الورائية، و(القصص العظمى –Grand Narratives) .. **سياسة ما بعد الحداثية**، ليندا هتشون، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2009: 21

(4) **الإغواء بالعولمة**، الكسندر بانارين، تر: عياد عيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005: 195

(5) **السرديات المضادة – بحث في طبيعة التحولات الثقافية-**، معن الطائي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2014: 133

(6) **الثقافة والامبريالية**، ادوارد سعيد، تر: كمال ابو ديب، دار الاداب، بيروت، ط 4، 2014: 16

(7) ينظر: **السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري** لسرديات فرانسوا ليوتار، د. معن الطائي، الحداثة وما بعد الحداثة، مدونة الكترونية: السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار | الحداثة وما بعد بعد الحداثةModernité Et Le Post-Postmodernisme (post2modernisme.blogspot.com)

(8) **اوهام ما بعد الحداثة** ، تيري ايجلتون، تر: د. منى سلامة، اكاديمية الفنون ، القاهرة، 2000: 89

(9) **سياسة ما بعد الحداثية**، ليندا هتشون، تر: حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية، بيروت، ط 1، 2009: 160

(10) **الإغواء بالعولمة**، (مرجع سابق):195

(11) **الإغواء بالعولمة**، (مرجع سابق): 195

(12) **من الحداثة الى ما بعد النسوية** ، أماني أبو رحمة، دار شهريار، ط 1، 2018: 57

(13) **كتاب عن ما بعد الحداثة وانهيار السرديات الكبرى**، عمار المأمون، الموقع الإلكتروني لجريدة العرب: https://n9.cl/zofau

(14) **ما بعد الحداثة، مقدمة قصيرة جدا**، كريستوفر باتلر، تر: نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 1، 2016: 14

(15) **النظرية الادبية**، ديفيد كارتر، تر: د. باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف والترجمة، دمشق، ط 1، 2010: 148

(16) **النظرية الادبية**، (مرجع سابق): 148-149

(17) **السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار**.. مدونة الكترونية، عن
Just Gaming Translated, Jean- Francois Lyotard and Jean- Loup Thebaud: by WladGodzich, University of Minnesota Press, Fifth -print-ing, 1999, PP 17-18.

(18) **السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار**، مدونة الكترونية:
السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار | الحداثة وما بعد بعد الحداثة Modernité Et Le Post-Postmodernisme (post2modernisme.blogspot.com)

(19) ترى الماركسية ان الامبريالية العالمية سمة استعمارية تتعلق بالغرب، لاسيما وهي اعلى مراحل الرأسمالية .. ينظر: **في الحداثة والخطاب الحداثي**، منير شفيق، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1999: 23-24

(20) ينظر: **نقد العقل الغربي، الحداثة ما بعد الحداثة**، مطاع الصفدي، الإنماء القومي، بيروت، ط 1، 1990: 324

(21) ينظر: **ما بعد الحداثة، دراسة في المشروع الثقافي الغربي**، د. باسم علي خريسان، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2006: 329

* في نوفمبر/ تشرين الثاني 2005، أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة (قرار 60/7) يوم الـ27 من كانون الثاني، يوما عالميا لإحياء ذكرى ضحايا المحرقة بالإنجليزية (International Holocaust Remembrance Day) ، وأعلنت أن " المحرقة، التي قتل فيها ثلث الشعب اليهودي وعدد لا يحصى ممن ينتمون إلى أقليات أخرى، مع تنويه واضح ان القرار أعلاه يرفض أي شكل من أشكال إنكار الهولوكوست

(22) **افق يتباعد من الحداثة الى بعد ما بعد الحداثة**، اماني ابو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، ط1: 195

(23) " المغالطات المنطقية الناجمة عن اقتران الأخلاقيات بالانضباط الاجتماعي ربما تحمي الممارسة اليومية لعلم الاجتماع من أزمة النموذج، فقلما يسبب تطبيق النموذج القائم أي حرج .." **الحداثة والهولوكوست**، زيجموند باومان، تر: حجاج ابو جبر – دينا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 1، 2014: 274

(24) **أفق يتباعد**، (مرجع سابق): 195

(25) يرى الأستاذ (عبد الله إبراهيم) أن الرواية جزء من السرديات الكبرى، فهي أولاً: " وثائق رمزية تعبر تخيليا عن التطلعات الكبرى للمجتمعات " وثانيا: أنها انسلت من تلك السرديات التي أسهمت " في صوغ تصوراتنا عن انفسنا وعن غيرنا، عن ماضينا وعن حاضرنا، فقدرتها التمثيلية تمكنها من القيام برسم صور مجازية عن السياق الثقافي الذي تظهر فيه، ولها إمكانية إعادة تركيب الأرصدة الثقافية والمؤثرات المعاصرة، بما يجعلها تنخرط في إثراء العالم الذي نعيش فيه.." **السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة**، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003: 63

(26) **أفق يتباعد**، (مرجع سابق): 220

(27) نظرية حركة التاريخ في الفكر الإسلامي الحديث، تعدد الطرح ووحدة المضمون، د. هاجر دوير حاشوش، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، العدد: 213، 2015: 141

(28) **الشخصيات التاريخية الفاعلة في رواية سمرقند لامين معلوف**، د. أوريدة عبود، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، مج 59، العدد: 3، أيلول، 2020: 177

(29) ينظر: **السرديات الكبرى من الكبريات الانطولوجية الى الصغريات الأخلاقية**، معاذ بني عامر، ضمن سلسلة (المقدس والسرديات الكبرى)، مؤمنون بلا حدود للدراسات والنشر، الرباط: 8

(30) **مكون السرد في رواية نثار الاجساد المحروقة لواسيني الأعرج مقاربة بنيوية دلالية د. سامي الدهان، مجلة الأستاذ كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، مج 60، العدد: 2، 2021: 67**

(31) " وباختصار شديد لقد منحتنا ما بعد الحداثة وما بعدها سرديتين مقدستين وحيدتين متفردتين استبدلت بهما سرديات البشرية جمعاء :سردية الهولوكوست وسردية الحادي عشر من سبتمبر .ومن أراد قراءة المرحلتين فما عليه سوى الاكتفاء بهذين النصين المقدسين .. ينظر: **نهايات ما بعد الحداثة**، (مرجع سابق): 372

(32) **نهايات ما بعد الحداثة**، (مرجع سابق): 393

(33) **مفهوم الأرض في التراث الفلسطيني المعاصر، الشعر أنموذجا**، د لؤي شهاب محمود، مجلة الأستاذ،، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، المجلد الأول، العدد 211، 2014: 1

(34) **ماء وملح**، سارة النمس، دار الآداب، بيروت: 11

(35) **ماء وملح**، (مرجع سابق): 11

(36) **رأيت رام الله**، مريد البرغوثي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2011: 8

(37) **رأيت رام الله**، (مرجع سابق): 10

(38) **يافا**، نبال قندس، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 4، 2015: 169

(39) **نجمة البحر**، إلياس خوري، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2019: 10

(40) **نجمة البحر**، (مرجع سابق): 14

(41) **ربيع حار**، سحر خليفة، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2018: 10

(42) **سماء القدس السابعة**، أسامة العيسة، منشورات المتوسط، ميلانو، ط 1، 2023: 10

(43) المفارقة ان كاتبي هاتين الروايتين من المعتقلين في السجون الإسرائيلية، فناصر أبو سرور معتقل منذ عام 1993، وباسم خندقجي معتقل منذ عام 2004

(44) **حكاية جدار**، ناصر أبو سرور، دار الاداب، بيروت، ط 1، 2022: 35

(45) **قناع بلون السماء، باسم خندقجي**، دار الاداب بيروت، ط 1، 2023: 45

(46) **حكاية جدار**، (مرجع سابق): 62

المصادر

1- **نهايات ما بعد الحداثة أرهاصات لعهد جديد**، د. أماني أبو رحمة، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط 1، 2013

2- **فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيغليين (الكسندر كوجيف- اريك فايل)**، د. محمد الشيخ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط 1، 2008

3- **سياسة ما بعد الحداثية**، ليندا هتشون، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2009

4- **الإغواء بالعولمة**، الكسندر بانارين، تر: عياد عيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005

5- **السرديات المضادة – بحث في طبيعة التحولات الثقافية**، معن الطائي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2014

6- **الثقافة والإمبريالية**، إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط 4، 2014

7- **أوهام ما بعد الحداثة** ، تيري ايجلتون، تر: د. منى سلامة، أكاديمية الفنون ، القاهرة، 2000

8- **من الحداثة إلى ما بعد النسوية** ، أماني أبو رحمة، دار شهريار، ط 1، 2018

9- **ما بعد الحداثة، مقدمة قصيرة جدا**، كريستوفر باتلر، تر: نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 1، 2016

10- **النظرية الأدبية**، ديفيد كارتر، تر: د. باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف والترجمة، دمشق، ط 1، 2010

11- **في الحداثة والخطاب الحداثي**، منير شفيق، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1999

12- **نقد العقل الغربي، الحداثة ما بعد الحداثة**، مطاع الصفدي، الإنماء القومي، بيروت، ط 1، 1990

13- **ما بعد الحداثة، دراسة في المشروع الثقافي الغربي**، د. باسم علي خريسان، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2006

14- **أفق يتباعد من الحداثة إلى بعد ما بعد الحداثة**، أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، ط1

15- **الحداثة والهولوكوست**، زيجموند باومان، تر: حجاج أبو جبر – دينا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 1، 2014

16- **السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة**، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003

17- ربيع حار، سحر خليفة، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2018

18- سماء القدس السابعة، أسامة العيسة، منشورات المتوسط، ميلانو، ط 1، 2023

19- حكاية جدار، ناصر أبو سرور، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2022: 35

20- قناع بلون السماء، باسم خندقجي، دار الآداب بيروت، ط 1، 2023: 45

21- **ماء وملح**، سارة النمس، دار الآداب، بيروت

22- **رأيت رام الله**، مريد البرغوثي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2011

23- **يافا**، نبال قندس، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 4، 2015

24- **نجمة البحر**، إلياس خوري، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2019

25- **السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري** لسرديات فرانسوا ليوتار، د. معن الطائي، الحداثة وما بعد الحداثة، مدونة : الكترونية: السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار | الحداثة وما بعد بعد الحداثةModernité Et Le Post-Postmodernisme (post2modernisme.blogspot.com)

26- **كتاب عن ما بعد الحداثة وانهيار السرديات الكبرى**، عمار المأمون، الموقع الإلكتروني لجريدة العرب: https://n9.cl/zofau

27- **السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار**.. مدونة الكترونية، عن Just Gaming Translated, Jean- Francois Lyotard and Jean- Loup Thebaud: by WladGodzich, University of Minnesota Press, Fifth -print-ing, 1999, PP 17-18.

28- **السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار**، مدونة الكترونية: السرديات المضادة وإشكالية النموذج النظري لسرديات فرانسوا ليوتار | الحداثة وما بعد بعد الحداثة Modernité Et Le Post-Postmodernisme (post2modernisme.blogspot.com)

29- **نظرية حركة التاريخ في الفكر الإسلامي الحديث، تعدد الطرح ووحدة المضمون**، د. هاجر دوير حاشوش، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، العدد: 213، 2015

30- **الشخصيات التاريخية الفاعلة في رواية سمرقند لأمين معلوف**، د. أوريدة عبود، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، مج 59، العدد: 3، أيلول، 2020

31- **السرديات الكبرى من الكبريات الأنطولوجية إلى الصغريات الأخلاقية**، معاذ بني عامر، ضمن سلسلة (المقدس والسرديات الكبرى)، مؤمنون بلا حدود للدراسات والنشر، الرباط

32- **مكون السرد في رواية نثار الأجساد المحروقة لواسيني الأعرج مقاربة بنيوية دلالية** د. سامي الدهان، مجلة الأستاذ كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، مج 60، العدد: 2، 2021

33- **مفهوم الأرض في التراث الفلسطيني المعاصر، الشعر أنموذجا**، د لؤي شهاب محمود، مجلة الأستاذ، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، المجلد الأول، العدد 211، 2014

مجلة كلية التربية الاساسية
كلية التربية الاساسية – الجامعة المستنصرية
Journal of the College of Basic Education Vol.31 (NO. 132) 2025, pp. 23-36

Grand narratives between performativity and postmodernism The Palestinian issue in the contemporary Arab novel as a model

Prof. Dr. Bushra Y. Muhammad **Yahya M. B. AlSaidi**
Ibn Rushd College of Education for Human Sciences
Department of Arabic Language
debushrayaseen@yahoo.com yyalsaeede@gmail.com
07704221527 **07722691211**

Abstract:
The convergence (performance) of history and (you do) narratively by taking it out of the perceptions of a tribal (post-modernist) audience, or even dimensionality, history is the violence of nations in its entirety, and also you see it as the opposite of (their creations) can't be a girl with no access to it, or it's a piece of time Rather, it and the word about performance are assumed by a combination of this and this, an unbroken torrent, a timeline that runs with a complete and unstoppable sequence, and with his undisguised sin, it is the product of a great international interaction, shrouded in the presence of human forces that have contributed to the creation of great pillars of knowledge. "Eichelman presents his perception of history as a successive chain of historical hatred, but poses this cascading perception of punishment in a non-controversial metaphysical context.This deplores (performative) history, and is assumed by one of the most important fiction writer's tools, and by doing so it draws the frontiers of the use of history, as a crossing and integral, and wears a decent humanitarian solution, and hence we know that (performative) and history are not as contradictory as it happens in modernity Narrative of expression and export together.In this research, we will discuss the great narratives from two different perspectives, a vision (postmodernism) that is very different from what you see (performative) as an emerging theory that treats the great narratives purely as a reference moral treatment. Our choice of the Palestinian cause was a narrative of what we found fit to be a narrative of an entire people that history will always look at as a glory.

Keywords: performativity, postmodernism, grand narratives, history